

## ما ذا يعني بالمجتمع المصالح؟



الصالحة، كما نعني به المجتمعات الصالحة التي أخذت الكتاب بقوّة ملتزمةً بمنهجه وشرعيته وأخلاقه.

يُضاف إلى ذلك الأهداف السامية التي أراد الله تعالى للإنسان تحقيقها في مجتمع الخلافة الربانية، سواء من خلال العلاقات الثنائية المحدودة، أو الاجتماعية الواسعة المتعددة، أو من خلال السنن والقوانين الاجتماعية التاريخية التي تُنظم تلك العلاقات البينية من جهة، وتحكمها بنظام عام يربطها بالغيب والمطلق والممثل الأعلى وهو الله تبارك وتعالى.

وأنَّ صلاح المجتمعات لا يبْتني ولا يَقُوم على صلاح أفرادها فقط، بل لابدَّ من إدارة مؤسَّسة سماوية وأرضية تتولِّ العناية الكاملة بشُؤون المجتمع، وبما يؤمنُ له الصلاح والإصلاح من دستور وقوانين وآليات أو سياسة عامَّة، كما لابدَّ من استشراف رؤى القرآن في ذلك أيضاً، علاوة على ما يصبُّ في هذا الإتجاه من علاقات مالية متباينة تُشكِّل البنية الأساسية لمنظومة ما يُسمَّى بالتكامل الاجتماعي)، وما يلحق بذلك كلَّه من آداب وموابط أخلاقية تنظِّم سير الحراك الاجتماعي في المجتمعات

غير أنَّ الإشارة إلى ملامح المجتمع الصالح في القرآن الكريم تقتضينا التَّنويه إلى أنَّ الحديث عن المجتمع الصالح لا يتمَّ بمعزل عن الحديث عن المجتمعات الفاسدة والمنحرفة والمعرضة عن مُثُلها الأعلى المنحازة إلى المُثُل المنخفضة، لكنَّ الخشية من أن يتشعَّب البحث دعتنا إلى التركيز على المجتمعات الصالحة دون الانعطاف على مجتمعات الشرك والكفر والضلال والذِّفاق والظلم والفساد، آملين أن تكون معالم النموذج الاجتماعي الصالح - من وجهة نظر قرآنية - عاكسةً أو لافتةً بالضمن إلى أن ما عداه هو المجتمع المغضوب عليه، أو المجتمع الصَّالح.

#### - عناصر المجتمع وعلاقتها على ضوء القرآن الكريم:

المُسْتَخْلَف.. الخليفة.. المُسْتَخْلَف عليه:

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْهُلُ الدِّرْمَاءَ وَزَحْنُ زُسَبِرْجُ بِحَمْدِكَ وَزُقَدَسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 30).

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أوَّلاً: الإنسان.

ثانياً: الأرض أو الطبيعة على وجه عام (إنني جاعل في الأرض خليفة).

ثالثاً: العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض (بالطبيعة)، وترتبط من ناحية أخرى بالإنسان بأخيه الإنسان، وتُسمى بـ(الاستخلاف).

والمجتمعات البشرية جمِيعاً تشتهر بالعناصر الأول والثاني، ولكنها تختلف في العنصر الثالث، كونه العنصر المرن والمتحرك من عناصر المجتمع، وبذلك تكون عناصر المجتمع هي: (المُسْتَخْلَف) وهو إ

سبحانه وتعالى، و(المُستخلف) وهو الإنسان، (المُستخلف عليه) وهو الأرض.

- المحتوى الداخلي هو الأساس في التغيير الاجتماعي:

يتمثل المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان في (الفكر) و(الإرادة)، وهو الأساس لحركة التاريخ والبناء الاجتماعي العلوي بكلّ ما يضمّ من علاقات وأنظمة وأفكار وتفاصيل، وتغيير البناء العلويّ وتطوره مرتبط بالقاعدة التي هي المحتوى الداخلي للإنسان، والعلاقة بينهما علاقة تبعية تتمثل في سنة تاريخية في قوله تعالى: .. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (الرعد/ 11).

ولهذا سمّى الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي إذا اتجّهت اتجاهها صالحاً بـ(الجهاد الأكبر)، وسمّى عملية البناء الخارجي إذا اتجّهت اتجاهها صالحاً بـعملية الجهاد الأصغر، واعتبر أنّ الجهاد الأصغر إذا فُصلَ عن الجهاد الأكبر فقد محتواه، وقد فقد قدرته على التغيير الحقيقيّ.

- المثل الأعلى منطلق لبناء الإنسان:

إنّ المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو (المثل الأعلى)، فهو الذي يُحدّد الغايات التفصيلية التي تُعتبر محركات للتاريخ. فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً، وعالياً، وممتدّاً، تكون الغايات صالحة وممتدّة، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً ومنخفضاً، تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً.

والمثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهو الذي يقدّم وجهة النظر العامة إلى الحياة والكون، ومن خلال الطاقة الروحية التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى، ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون، تحقّق الجماعة البشرية إرادتها للسير نحو هذا المثل وفي طريقه. وكلّ جماعة اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها وطريقها، ومنعطفات هذا السبيل وهذا

الطريق، قال إله سبأ: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِذْلَكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحٌ فَمُلَاقِيهِ) (الإنشقاق/ 6).

هذه الآية الكريمة تضع الله سبحانه وتعالى هدفًا أعلى للإنسان، والإنسان هنا بمعنى الإنسانية ككل، فالإنسانية بمجموعها تكده نحو الله سبحانه وتعالى، وهذا السير ليس اعتياديًّا، بل هو ارتقائيًّا، تصاعديًّا، تكامليًّا، تسلقيًّا، فالإنسانية حينما تكده نحو الله، فإنَّ ما هي تتسلق إلى قمم كمالها وتكللها وتطوّرها إلى الأفضل باستمرار. وكل سير وكل تقدّم للإنسان في مسيرته التاريخية الطويلة الأمد، فهو سير وتقدّم نحو الله سبحانه وتعالى.

فحينما تتقدّم الإنسانية في هذا المسار واعيًّا لمثلها الأعلى وعيًّا موضوعياً، يكون التقدّم تقدّمًا مسؤولاً، يكون عبادة - بحسب لغة الفقه - حتى أولئك الذين رکعوا وراء سراب اجتماعي، وراء المُثل المنخفضة، بينما يصلون إلى هذا السراب لا يجدون شيئاً ويجدون الله سبحانه وتعالى فيوفيهم حسا بهم.

الله سبحانه وتعالى هو المطلقاً، وبحكم كونه كذلك، فهو موجود على طول الطريق، كما أنَّه يُمثِّل نهاية الطريق، وبقدر زخم الطريق والتقدّم فيه، يحد الإنسان مثله الأعلى، وبحكم مطلقية الله، فالطريق أيضاً لا ينتهي، بل هو اقتراب مستمر بقدر التقدّم الحقيقي نحو الله، وهو اقتراب نسبي لأنَّ المحدود لا يصل إلى المطلق والفسحة بينهما لا متناهية، أي أنَّه ترك له الإبداع إلى اللانهاية.

#### - أثر المثل الأعلى الحقيقي على المسيرة البشرية؟

حينما توفّق المسيرة البشرية بين وعيها على المسيرة وبين الواقع الكوني لهذه المسيرة، بوصفها سائرة ومتّجهة نحو الله، سوف يحدث تغيير كمّيًّا وكيفيًّا على هذه المسيرة، أي أنَّ مجال التطوير والإبداع والذّمود قائم دائمًا وأبداً ومفتوح للإنسان باستمرار ومن دون توقف. وحين يُتبني هذا المثل الأعلى، فسوف تُمسح من الطريق كل الآلهة المزورة وكل الأصنام والأقراص المتصنمّة والتي تقف عقبة بين الإنسان وبين وصوله إلى الله سبحانه وتعالى، وهي لا تصنع الشعور بالمسؤولية، بل تصنع قوانين وعادات كلَّ ما وجد الإنسان مجالاً للتحلّل منها تحلّل.

## - شروط تبند<sup>٣</sup> في المثل الأعلى الحقيقى:

تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضحة للمثل الأعلى، تُعلّمـنا أن نتعامل مع صفات الله، وأخلاقه، لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنـا، وإنـما نتعامل معها بوصفها رائداً عمليـاً وهدفاً لمسيرتنا العملية، ومؤشـرات على الطريق الطويل للإنسان نحو الله سبحانه وتعالى.

ولابد<sup>٤</sup> أيضاً من طاقة روحية مستمدـة من هذا المثل الأعلى، لكي تكون رصيـداً ووقودـاً مستمراً للإرادة البشرية على مرـ التاريخ، وهذا الوقود يتمثـل في عقيدة يوم القيمة التي تُنعش إرادة الإنسان وتحفظ له دائمـاً قدرته على التجديد والإستمرار.

كما لابد<sup>٥</sup> من صلة موضوعية بين الإنسان وبين مثله الأعلى، وهي تتجسـد في النبي ودور النبوـة، فالنبي هو ذلك الإنسان الذي يُركـب بين الشرط الأول (التوحيد) والشرط الثاني (المعاد).

وعندما تدخل البشرية مرحلة يُسمـيها القرآن الكريم بمرحلة الإختلاف التي تنتصب فيها المثل المنخفضة أو التكرارية، فلابد<sup>٦</sup> من معركة ضدـ هذه الآلهة المُزيفـة، ولابد<sup>٧</sup> من قيادة تبندـى هذه المعركة وهي الإمامة، دور الإمامة يندمج مع دور النبوـة ولكنـه يمتدـ أيضاً حتى بعد النبي إذا ترك النبي الساحة وبعدـ لا تزال المعركة قائمةـ.

وبكلمة مختصرة، فإنـه المثل الأعلى يوحـد المجتمع البشري وي Luigi كلـ الفوارق والحدود، باعتبار شموليةـ هذا المثل الأعلى، فهو يستوعب كلـ الحدود كلـ الفوارق، ويهمض كلـ الاختلافات، ويصهر البشرية كلـها في وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميـز بعضـها عنـ بعضـ لا من دم ولا من جنس ولا من قومـة ولا من حدود جغرافيةـ أو طبقيـة. يقول تعالى: (إِنَّهُذِهِ أُمَّةٌ تَدْعُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَرَاهَا رَبَّكُمْ فَإِاعْبُدُونـ) (الأنبـاء / 92). ▶